

جدلية الإبداع وجمالية الصحراء في رواية نزيف الحجر

أ. خيرة ياحي

جامعة عمار ثليجي بالأغواط - الجزائر

تاريخ الإرسال: 2018-05-11 - تاريخ القبول: 2018-08-02 - تاريخ النشر: 2018-10-03

الملخص:

يتناول هذا البحث موضوع البنية المكانية في الرواية الحديثة، والذي يعدّ أساسيا في الدراسات السردية المعاصرة، وقد حاولنا في بحثنا هذا أن نسلط الضوء على جمالية المكان في رواية نزيف الحجر للروائي الليبي إبراهيم الكوني وقد تناولنا الفضاء الصحراوي الذي اعتبره أساسيا في الرواية، وقد أخذ المكان في النص السردى أبعادا شتى، نفسية واجتماعية، وتاريخية ودينية، دلالة على الارتفاع بالمكان من مجرد حيز جغرافي ضيق إلى حيز لغوي ينبض بالحركة والحياة تفاعل معه الروائي إنسانيا وحمله همه وثقافته وثقافة الجماعة ورؤيته.

الكلمات المفتاحية: الفضاء الروائي - سوفوكليس - أوفيدوس - آسوف - الطوارق - الأبلق - الودان - الصحراء - التتوات -

Summary:

The present research the structure of space in modern novel which is a main in the contemporary narrative studies, we have tried in our research that highlight the aesthetics of space in "nazif Elhajr novel" for Libyan novelist: Ibrahim Al-Koni, we take into a desert space, which he considered main in the novel, The space in text novel was worked by many psychological, social,

historical and religious dimensions. This reflects that space was not viewed as merely a narrow geographical sphere, but, on the contrary, as a linguistic sphere in a humane way and whose concern culture, the group culture and view altogether bore.

مقدمة :

تفترض علينا سيرورة المعنى تتبعا دقيقا لكل جزئياته التي تبنيه فلا يفلت منا عنصرا إلا ونقبض عليه في تقنية من التقنيات "إن التعرف على المعنى جزء من سيرورة تشكله"¹ ولن يتم هذا التعرف إلا من خلال التدقيق والتقيب في جزئياته. ولكننا لا نصر على المعنى المطلق النهائي لان هذا يتنافى مع التأويل الذي هو حياة النص وأساس استقراره، ومادام هذا النص هو وجدان الشعوب وحياتها وإبداع الكاتب ورؤيته، فليس هناك من يملك السلطة على النص إلا من بذل حياته في هذا النص بأن يؤول ويفهم.

ومادام الروائي يملك بعض الحرية فيما يحيك وينسج، فالقارئ أيضا له حرية تبدأ بنهاية هذه الحرية التي اختارها الروائي، حتى يؤول ويفهم فليس هناك نظم محدد للأحداث، "وليس هناك منطق يحكمها، ولا وجود لخطة سردية قادرة على جمع شتات الوقائع ضمن نفس حكائي واحد"² ولهذا كان لكل عمل أدبي فرديته وخصوصيته .

وإذا كان لا بد من تحديد المعنى في تقنية من التقنيات التي تتناولها فإنه لزام علينا أن ننطلق من مواد بنائه "فالتعرف على المعنى وتحديد حجمه لا ينفصل عن الميكانيزمات التي أنتجته"³، وبالتالي وجب التدقيق في كل جزئية ساهمت في بناء هذا المعنى.

ولا تعتبر الدلالة راسخة في قراءة من القراءات لا تتغير ولكنها نامية متوالدة حسب قدرة الدارس على كشفها واستجلائها ومختلفة "إن العين لا ترى من كل الزوايا، وعدد الحقائق وثيق الصلة بعدد زوايا النظر"⁴، فكلما تعددت القراءات للنص أتيح لنا الوصول إلى بعض أسرارها، ولهذا لا نجزم أن دراستنا ستلم بكل الجوانب .

ولا يمكننا الجزم بأن المعنى مجرد مضمون ولكنه إلى جانب ذلك شكل، وانطلاقا من هذا كانت دراستنا لرواية نزيف الحجر لإبراهيم الكوني⁵.

نزيف الحجر هو عنوان رواية لإبراهيم الكوني الكاتب الليبي والتي صدرت له أول مرة في: 21 ماي 1998 متوسطة الحجم عدد صفحاتها 158 صفحة وقد طبعت عدة مرات .

تحكي رواية "نزيف الحجر" عن بيئة صحراوية، وشخصيات غير مألوفة في الرواية العربية، ترسم لنا علاقات غامضة تربط بين الإنسان والصحراء بما فيها من حيوان وبشر وجماد، ولكن علاقته بالحيوان علاقة أخوية، فالإنسان في هذه الصحراء يواجه الطبيعة أعزلا وحيدا دون سلاح، وقد بنيت هذه الرواية على قصة قابيل قدمها الروائي الكوني بشكل تدريجي على فصول الرواية فالصحراء هي كنز لمن أراد الحرية والنجاة، نجد شخصيات العمل الروائي في الطرفين النقيضين الطرف الضحية وهي فريسة الصيد والطرف الصياد الذي همه الحصول على المبتغى إما بصيد الإنسان أو بصيد الحيوان .

الإشكاليات :

- كيف وظف الكوني المكان في الرواية ؟ ما هي طبيعة العناصر التي شكلت الإطار العام للمكان؟ وهل اختيار الكوني للمكان الصحراوي هو مجرد عنصر جزئي لبناء روايته؟ كيف ساهم المكان في تصوير جدلية الصراع الإنساني داخل الرواية ؟ وستكون إجابتنا عن هذه الإشكالية وفق ما يلي:

الفضاء الروائي/ الصحراء:

المعروف أن المكان الروائي هو المكان اللفظي المتخيل؛ أي المكان الذي صنعتته اللغة انصياعاً لأغراض التخيل الروائي وحاجاته. وهذا يعني أن أدبية المكان، أو شعريته، مرتبطة بإمكانات اللغة على التعبير عن المشاعر والتصورات المكانية مفضية إلى جعل المكان تشكيلاً يجمع مظاهر المحسوسات والملموسات، ومكوناً من مكونات الرواية يؤثر فيها ويتأثر بها.

وإذا كان الوصف قادراً على تقريب المكان من القارئ، تبعاً لرسمه صورة بصرية تجعل إدراك المكان بوساطة اللغة ممكناً، فإن هذا الوصف مجرد تمهيد لاختراق الشخصيات المكان بوجهات نظرها الخاصة، ومحاولتها بناء فضاء روائي يضبط

إيقاع الأمكنة الروائية التي اخترقتها الشخصيات وتفاعلت معها.

الفضاء المكاني عند الكوني ليس مسرحاً للأحداث البطولية لأنه فضاء يعشقه الروائي ويسكنه مثلما تسكن الشمس الحارقة كلها يقع تحت أشعتها، هذا المكان المكثف الذي له كل مقومات الإنسانية له قوانينه التي يسير عليها، له فلسفته الخاصة، يرأف على أولاده مثلما ترأف أم على أولادها، ولكنها أم صارمة تعرف الحق ويهولها خيانة أولادها لبعضهم البعض، فتصرعهم أمامها بإرادة مسلوبة.

هذه الصحراء التي وظّفها الكوني هي غير الصحراء التي نعرفها، فهي معادل موضوعي لحياة الإنسان ضمن الوجود. بما تحمله من شقاء وتعاسة وسعادة، سببها التعت على القدر ومحاولة تجاهله، هذه الصحراء الشاسعة تحمل في جسدها التراجيديا والأسطورة والفلسفات المختلفة والسحر والشعوذة والخرافة، والديانات والتصوف لتعجنها في قلب هذا الكائن البشري أسوف الذي يمثل الصفاء والفطرة⁶.

1/ الفضاء الروائي الداخلي والخارجي:

أ/ الفضاء الخارجي تمثله صيغتين:

الصيغة الأولى:

الصحراء المترامية الأطراف أول بعد في تشكيل الرواية تمتد إلى البلدان المجاورة لليبيا الموقع الأصلي وتبرز من خلال مكوناتها: الحجارة، الصخور، الجبال، الوديان.. هذا الاتساع الفضائي غير المحدود يوحي باتساع سردي لا تحده حدود وقوامه الصراع الأبدي بين الحياة والموت.

يسعى الكوني في هذا العمل الروائي إلى بسط العالم الصحراوي بكل مكوناته، ويشخص حلول الإنسان في الحيوان والحيوان في الإنسان من خلال الروح من خلال صورة المعاناة الدرامية الذاتية، في هذا العراء الصحراوي يرتع الرمز الديني (الودان)⁷، أساس الصراع باعتباره مبتغى الجميع، فتجسد الدراما حينما يحل في الإنسان أو يحل الإنسان فيه.

الصيغة الثانية :

هناك علامات مكانية كثيرة تدل على البيئة الصحراوية مثل البيت المتمثل في الكهف، والهاوية، الصخور الشرسة، الوادي التواءات، الكهوف.. كذلك نجد أسماء الأماكن مثل: (مصايف مساك، صفت مساك ملت، وتاسيلي، تمانراست، فازان غاتا أغدير، تومبكتو، مختندوش، أبرهوه، الحمادة الحمرة، الجبال الغربية العالية، تادرارت، زوايا العوينات، الجبال الغربية مسيس، كانو أوغات، مرزق مقطوعة، أغاديس، جبال الحساونة) أغاديس، وادي الأجال، السودان، جبل نفوسة، جبال أكوس .

هذه الأماكن الجغرافية-على كثرتها- تحيلنا إلى الصراع بين الإنسان والجماد أو الإنسان والحيوان، هذا المخلوق الطيب الحقوق الذي يمثل الإنسان بنوازه الخير والشريرة.

هذا الفضاء بمكوناته الوظيفية يتفاعل مع بعضه، ليلبغ الصراع مداه وخاصة حينما تتقابل الثنائيات "الصخور العالية والمنحدرات الأودية، السيل والعاصفة، الصلابة في الصخور والنقش للحجارة، السماء والأرض الجبال، القلق في الحافة السقوط في الهاوية" وتتقوّل الشخصيات في هذا الفضاء لتمتّز به ،قانون هذه الصحراء يفرض على ساكنها الانعزال والتضحية، والاعتماد على النفس، تغدو تنوءات الصحراء رموزا للحياة والكفاح من أجل المحافظة عليها .

فالأماكن المنخفضة: الهاوية لها سردها الخاص يتعلق بالشخصيات في مواقف معينة كسقوط أسوف من الصخرة

إلى الهاوية. والأماكن المرتفعة. أعالي الجبال الصخرة تتحدد من خلالها المصائر. فصير والد أسوف تتحدد من خلال الصخرة حينما أنقذه الودان، وكذلك الأمر نفسه وقع مع أسوف حينما أنقذه الودان.

الودان: في هذه الأماكن المرتفعة والمنخفضة مثل الخطر لأسوف ووالده، وفي الوقت ذاته النجاة حينما أنقذهما ولكن تحولت الأماكن المنخفضة إلى مصادر خوف بالنسبة للغزال والودان وصارت الأعالي مصدر حماية لهم، هربا من الوحش البشري وحفاظا على نفسه منه.

ب/ الفضاء الداخلي للرواية:

ترصد الباحثة بشكل ما أمرا متميزا وفي غاية الأهمية، ألا وهو ذلك الاستدعاء والحضور الفعال للكثير من النصوص ذات الروافد الفكرية متعددة المشارب في المتن الروائي محل الدراسة، حيث تلحظ أن الخطاب الروائي للكوني مليء بالعديد من التعالقات، ولربما أمكننا القول أن الرواية مبنية على جملة معتبرة من الاقتباسات والتي تراوحت بين الاقتباسات الدينية والأدبية والتراثية، ونفصل ما جادت به قراءتنا لها على النحو الآتي:

الاقتباسات الدينية: مصدرها القرآن وسفر التكوين والعهد القديم عددها أربعة، يقول تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير في السماء إلا أُمم أمثالكم﴾ الأنعام الآية 37 .

الاقتباسات الأدبية: والتي أخذها من نصوص تراثية، منها: سوفوكليس (أوديب ملكا) يتسكع في الأدغال، بين شقوق الجبال، مثل ودان أنهكته الأحزان، يريد أن يفلت مما كتب في اللوح المحفوظ ولكن تظل نبوءات القدر تحوم فوق رأسه أبد الدهر⁸. وما قاله الشاعر الروماني أوفيدوس في التحولات: (ليبيا تصحرت القيط اختلس الرطوبة، فناحت الحوريات مهدلات الشعور، ومعين جفاف الينابيع والبحيرات)⁹.

الاقتباسات التراثية: نجد (اقتباسا يتعلق بالتشبث بالتعاويذ السحرية التي تحصنهم حيث صيد الودان، يقول هنري لوت في لوحات التاسيلي "ويتشاءم أهالي التاسيلي من صيد الموفلون (الودان) فيتم الصياد بالتعاويذ السحرية ويضع حجرا على رأسه، ويتقافز على أربع قبل أن ينطلق في رحلة الصيد"¹⁰

وكذلك اقتباس عن هيروديت حيث يقول: "في جنوب ليبيا، أعالي النماموريين، يعيش الجرامنت في بلاد غنية بالوحوش. وهم قوم يهربون من الناس، يخشون مخاطبتهم. لا يستعملون أي سلاح. ولا يعرفون الدفاع عن النفس."¹¹

وهذه التيمات المقدمة في النص منسجمة معه كل الانسجام، فالأقتباسات الدينية تتمحور حول علاقة الإنسان بالله على اختلاف الديانات مسيحية أو إسلامية، والاهتمام بالصلاة

باعتبارها عنصر يركز هذه العلاقة بين الخالق والمخلوق فتساوى عنده الصلوات رغم الاختلافات في أدائها.

ورغم هذه الركائز التي اعتمدها في الفصول الأولى من الرواية إلا أن الشخصيات تخرج عن هذه الركائز، ومن ذلك:

(1) قابيل: يأكل لحم أخيه ويخون العهد، مثل خيانة قابيل لأخيه هابيل حينما قتله.

(2) كما نجد سجود المسيحيين للرسومات المجسدة في الكهوف بدل السجود للمسيح فقط ورغم إسلام أسوف والتزامه كذلك بأداء صلواته، إلا أنه يؤمن بوجود قوى أخرى تغير هذا الوجود الودان روح الجبل، تعامله مع الجن والمهممات معهم وهذا لطبيعته البدائية، لأنه في هذه الرواية يمثل الإنسان قبل أن تغيره مظاهر الحضارة التي مسته فيما بعد.

(3) وأكثر شيء يثبت الخيانة هو ما لحق من قبل بالمكان هو الاحتلال الإيطالي لليبيا وتمشيط الطائرة لجبالها طولاً وعرضاً وهذا اعتداء على حرمة الأديان التي خرج عنها الذين ادعوا الانتماء لها.

(4) كذلك خروج جون عن المسيحية واستهلاكه للحوم الغزلان مع قابيل حتى نفذ، أما الاقتباسات التراثية والتي وظفها فنّها: اليونانية والعربية، وذلك رغبة من الكوني في ربط روايته بجذورها التاريخية الإنسانية حتى يوحد الفكر ويثبت توحيد الإنسان في القدم رغم أن الحضارة والمعرفة والأديان غيرته فيما بعد، مما يعني أن روح الرواية قديماً وحديثاً ذاته إلا أن طرق المعالجة اختلفت فقط.

وهناك خاصية أخرى في روايته، والمتعلقة بالتمهيش ضمن الفضاء الداخلي للنص والهدف منه إطلاع القارئ على معانيها مثلاً التيفناغ والتي وردت صفحة 148 في الهامش بمعنى أبجدية الطوارق.

هذا الفضاء الصحراء الأسطورية التي رسم ملامحها الكوني بكل فنية وداعبت أنامله أحجارها وكهوفها ورمالها وشمسها وحرّها ووديانها، فجعلها جنة تنوق إليها الأنفس وتتشوق إليها القلوب

المتصوفة فأجسادهم أفناها العشق، هذا العاشق الذي لن ينال معشوقا إلا إذا فنا جسده هذا الذي يحول دونه حتى يحل في ذات معشوقة ويتحد به.

وقد ولج الكوني إلى هذه الصحراء العالم البرزخي محاولا اطلاع قرائه على لذة التوحد بهذه الكائنات التي تسكن الصحراء، وليس أدل على ذلك من تلك المناظر التي يعرضها علينا أو التي تجعل المتلقي أمامها في حيرة .

2- التفاعل بين عناصر المكان لتشكيل الصورة:

وظف الكوني في روايته (نزييف الحجر) عناصر مختلفة فيما بينها ولكنها مكونات للفضاء الروائي/الصحراء، مما جعلها تمتاز لترسم صورة منسجمة ومتكاملة عن المكان. إذ أن توظيف بعض نعوت المسميات يدلّ على نظرة متخصصة للأشياء (الودان العظيم، بحر الرمل العظيم، الشمس المتغطرة، الودان الرهيب، الودان الأسطوري، القرنين الخرافيين الجندب الخرافي، الجندب العظيم (الهلكوبتر)) وتصور دوني للذات.

ولكن تعامله مع التراث يبقى تعاملًا جامداً وفي حدّ ما مشروطاً بعلاقته مع الأب والحاكم "الآثار؟ وما عسانا نفعل بالآثار؟ ألا نعرف أننا بحدّ ذاتنا آثار؟ نحن مثلك آثار تزار يأتي الأوروبيون من وراء البحار ليتفرجوا علينا ويشاهدوا حياتنا فهل رأيت أثرا تهمة الآثار؟"¹².

"فالنص كيان له عمق وامتداد وأطرافه انه مكونات ولا يمكن فهمه بدون التعرف على هذه المكونات وتعيينها ووصفها وتحديد العلاقات الممكنة بينها"¹³.

3- علاقة العنوان بالمضمون:

النزييف الذي هو عنوان روايته لا يلبث أن يصيب كل ساكن في الصحراء لأنه قدر كلّ مخلوق فيها، وتجلّى ذلك في عدة مقاطع:

بعدها لقيت حفتها "فاشتكتك للسماء حينها رفعت رأسها نحو السماء الصافية وصاحت بصوت أليم"¹⁴، وتتقلب الموازين في حياة هذا الحيوان المسكين فيغدو لعبة في يدي هذا المجرم حتى الحظ يوافقه. فلا تبقى إلا غزالة من القطيع ابتسم لها الحظ يهاجر هذا المخلوق جماعات عبر رحلة شاقة

هي رحلة البحث عن الخلاص والمحافظة على النسل هرباً من الآلة الوحشية التي اخترعها شيطان الإنسان، فالذي حلّ بالودان من قبل حل بالغزال، فجسدها في صورة الضحية بكل المقاييس، الغزالة التي اتخذت الضحية تسرد على طفلتها أمثلة الحياة والخلق وتحذرها من مغبة الخروج عن هذا القانون والعرف، الذي قدسه الخالق وجعله قدراً في رقبة المخلوق من خالقه.

ترمز هذه الشخصية للضحية التي يجب أن تكون قرباناً لغيرها ضحت بنفسها " لتضمن نسلها، ولكن غدر الآدمي لا يعرف الحدود هذه الغزالة التي كانت على طوال الرواية وامتدادها ضحية فأخذت - الغزالة الصغيرة على عاتقها أن تهوم في الجبال والوديان وطلبت من السماء أن تلعن الجميع الإنسان والغزال والآم الكبيرة لأنهم سببوا لها الألم فالغزالة الكبيرة هي من دفع أمها لتضحي بنفسها في سبيل الإنسان الذي جر السكين على رقبتها، فالغزالة تعتبر الدم الذي سربه قابيل من الغزالة المذبوحة (الحصن) الذي يؤاخي بينها وبين بني آدم"، "استمر نزييف الحجر على اللوح المحفوظ في حضن الرمل¹⁵.

وقد تردد العنوان بين ثنايا الرواية عدة مرات منها المواضع الآتية: "وجسمه ينزف بالعرق"¹⁶، حينما دخل الخرطوش الصحراء تضاءلت فرصة نجاته وأشرف على الانقراض. فصار دمه يسيل على السهول بعد حصول قابيل المجرم على آلة

شيطانية أخرى من (جون باركر) وليست هناك جريمة تعادل قتله لغزالة كانت حاملاً فأصاب جنينها في بطنها وسقط فصار تعلق الدم والمخاط عن جسد وليدها الصغير. كانت الغزالة تنزف والوليد الجريح ينزف"¹⁷.

- جعلها عنواناً للفصل الأخير من الرواية "الأرض عطشى إلى الدماء حينما سقط عليها بعض قطرات دم مسعود شربه على ظمأ"¹⁸ هذا ما جسده حديثه عن الشمس.

العنوان: "استمر نزييف الحجر على اللوح المحفوظ في حضن الرمل"¹⁹

4- علاقة المكان بالرواية:

إنّ طبيعة المكان هي التي فرضت هذا المعطى، فإذا كان المجال المكاني للرواية محدداً بالصحراء، فإنّ مجموعة من العلاقات المتشابكة تنسج داخل هذا المكان أو في علاقة به، فالعلاقة بين عالم البشر والعالم الحيواني في الصحراء تقوم على تقابل شديد يحكم بإبادة الواحد للآخر من أجل البقاء والتضحية ويسبغ صفات على الحيوانات لا يرقى إليها البشر كالنبل والتضحية (الغزال) والروح (الودّان)، ولهذا حين قتل قابيل ابن آدم تلك الغزالة التي ضحّت بنفسها من أجل عهد جديد بين الإنسان والحيوان كان فعله جريمة بعيدة الرمز "في تلك الليلة لم يقتل قابيل ابن آدم أخته فقط بل أكل لحما أيضاً"²⁰ ويظل أسوف محور المصالحة بين العالمين "كيف يستطيع المخلوق أن يأكل لحم مخلوق؟ ما الفرق بين لحم الحيوان ولحم الإنسان؟"²¹.

ويمثل قابيل الصورة العكسية لأسوف فهو المهاجم آكل اللحم النقي المستفيد من كل الأطراف يستخدم الأشخاص ويلتهم الحيوانات، ويتشارك مع الأجنبي في استنزاف خيرات بلاده في حين يبدو أسوف على قدر كبير من البلاء، إضافة إلى أن إصراره على الاعتصام بالصحراء، ونبذ الاجتماع يجعل البنى العقلية لديه في مرحلة تشكل أي المرحلة البدائية لا في مرحلة الإنسان المتحضر، حيث أن الرواية تتبلور وتنتهي وهو لا ينفك يعيد كلمات تعلّمها عن أبيه منذ مرحلة الطفولة فكأنه الطفل في جسد العجوز "لن يشبع ابن آدم إلاّ التراب. أبي قال ذلك"²²، ويمثل قابيل الخيط الرابط بين الصحراء الفضاء الشاسع ومكوناته المختلفة من حيوان ونبات وجماجم.

5- المكان النفسي من خلال المناظر:

هو المكان المصور من خلال حاجات النفس وتجلياتها وما يحيط بها من أحداث ووقائع أي من خلال الحالة النفسية التي يصنع فيها الروائي شخصيات روايته. وليس المكان المصور كما هو قائم فعلياً دون تدخل شعوري ونفسي من الروائي إذ المكان الذي وظفه الكوني تجسيداً لأبعاد اجتماعية واقتصادية وعقائدية وسياسية... إن التلاعب بصورة المكان في الرواية يمكن استغلاله إلى أقصى الحدود فإسقاط الحالة الفكرية أو النفسية للأبطال عن المحيط الذي يوجدون فيه يجعل للمكان دلالة تفوق دور المؤلف"²³

فلمكان ثقافة يحملها ويعبر عن دقائق رموزها. المكان في هذه الرواية هو نواتها، وقلبها النابض، والأسطورة هي عصبها المتحرك، حيث يرسم لنا المكان بداية الرواية ونهايتها في مشهد سردي متفاوت، كان المعطى الأساسي المتحكم فيه هو القلق، الخوف من المصير المجهول، الرغبة في العزلة ظنا أنها الخلاص من كيد البشر وشرهم، القداسة التي يشع بها المكان، ومن الملفوظات الروائية الدالة على ذلك:

"تركع أمام الصخرة"²⁴

"الكهوف المجهولة"²⁵

"ترتجف أصابعه عندما تلامس جدران الكهف الموسوم بخطوط الأقدمين"²⁶

إن لغة النص السردية التي وظفها الكوني مستوحاة من المكان الذي هو الصحراء فيؤنس مكونات الصحراء من شجر وصخور وشعب ووديان، متوجعا معبرا عن الواقع الثقافي للإنسان الذي يسكنه فهو أعزل بسيط يؤمن بالخرافة والجن والقرايين، والصحراء هي المكان المقدس بالنسبة لأسوف ووالدته حتى أنه اعتبرها كنزا، الصحراء هذا الفضاء الجغرافي الواسع يحمل في رحمه للإنسان الحياة والموت، فهو إذا سقط في الهاوية مات وإذا جرفه السيل كما هو الحال بالنسبة لوالدة أسوف، وجوف الصحراء أيضا يحمل له الحياة، فالبدور التي كانت في جوف الصحراء وأثمرت حاملة؟ الحياة لأسوف وحينما كان في جوف الكهف أيضا حافظ على حياته من خلال الصحراء، فما تحمله الصحراء من مكونات يبني الرواية بكل تفاصيلها، وحذف مكون من مكوناتها يجعل الرواية تنهار، فلو حذفنا الصخور لما صار للرواية معنى، ومن القرائن المكانية التي وظفها الكوني وحملها رؤيا تعبيرية إصدار الحكم الصخور فأعلاها وأسفلها يتحدث عن الصخور في الأعلى هو يقصد القرارات، وفي الأسفل هو تطبيق لهذه القرارات أسوف أنقذ من أعلى الصخرة وكذلك والده قبله في الأسفل النهاية سقوط الوالد في الهاوية.

يبدو الوعي لدى أسوف مثبتا في مرحلة بعينها وهي الطفولة، فالكوني يتحدث عن فتى يعاشر الأغنام ولا يأكل اللحم، ويعيش في ظل عقدة الأب وما تدلّ عليه من علاقة مع الأنا الأعلى من جهة والحاكم من جهة أخرى، في حين أن الإشارات المبعثرة عبر النص تدلّ على أنه

عاجز "تذكر كيف استقبله جنود الكابتن بورد يلو في آغات منذ ثلاثين عاما"²⁷، كذلك قوله: "ظهرت لحيته المكسوة بالبياض ورأسه المهدّد بالصلع"²⁸ وهذا لا يتطابق مع ردود أفعاله تجاه أبيه أو تجاه الأغراب من القبائل المجاورة أو من النصارى أو من مسؤولي الآثار.

6-قرائن المكان الصحراوي :

تقوم الرواية على جملة من التقابلات تفضي تدريجيا إلى بعضها البعض يجمعها إطار مكاني واحد، ومتعدد هو الصحراء فترى المؤلف يتجول بمنظاره ليركز في كل مرة على زاوية دون أخرى من الصحراء، من صحرائه الذاتية التي لم يتعرّف على كل مجالاتها يحاول فهمها من خلال مكوناتها المختلفة التي صنفناها إلى العناصر الآتية:

أ- الصخور:

تلك الصخرة التي بدأ بها الكاتب مشهده الأول في الرواية وأنهاها بها في بناء دائري متعلق مصورا الراعي وهو مصلوب على الودان وملتحما به، واختيار الكاتب شخصية أسوف في النهاية بصلبه تعدّ رمزا للتضحية والفداء من أجل الحفاظ على عهود الطوطمية، لتحقيق الأسطورة المكتوبة على الحجر "أنا الكاهن الأكبر متخدوش أنبا الأجيال أن الخلاص سيجيء عندما ينزف الودان المقدس ويسيل الدم من الحجر، تولد المعجزة التي ستغسل اللعنة وتطهر الأرض ويعم الصحراء الطوفان"²⁹.

الصخور في الصحراء شاهدة على صراع الإنسان والحيوان وعلى العلاقة بينهما، فحسم الموت والحياة على سطحهما فوالد أسوف قتل الودان أول مرة على الصخرة ونذر أن لا يقتل ودانا آخر، وكذلك حينما طارد أسوف الودان ووقع في الهاوية فأنقذه الودان على الصخرة، ونجد هذا أيضا حينما علق قاييل أسوف على الصخرة، وقد كانت الهاوية مصدر خوف الجميع، فأسوف خاف منها لأنه ظن أنها ستكون نهايته وقاييل كذلك، والوالد من قبله، كما يصبح الرمل مكونا صحراويا متلاحما مع الأم حينما جرفها المكان الثاني/ الصحراء عن طريق السيل وبقيت يدها متشبثة بنبات الطلح، وأهم علاقة تصادفنا في بداية الرواية هي العشق الذي يربط أسوف بالصحراء، فيحرس على حمايتها دون مقابل بجبالها وكهوفها ووديانها، حتى سمي (جني الجبل)، فهي علاقة أبدية

جسدتها نهايته على يد قابيل حيث أن قيمة الصخرة متأتية من الأوصاف التي كان الكوني فيها سخيا "الصخرة العظيمة تحدّ سلسلة الكهوف وتقف في النهاية كحجر الزاوية"³⁰ وقوله: "الطريق إلى الصخرة محفوف بالأحجار الوعرة"³¹ وتصبح الصخرة مرادفة للحياة للتمسك بها "حاول مرة أخرى التثبت بالصخور الملساء، فانهارت تحت قدميه مجموعة من الحجارة، فتهاوى وسقط في الوادي على ظهره"³²

وصعد السفح "الترس... فازدادت الصخور ارتفاعا وحدة، وسوادا كلما اقترب من القمة في صعوده الجنوبي"³³. هذه الأوصاف التي يغدق بها الكوني على المكان بكل مكوناته، فينعثها بصفات دالة على القوة والشراسة والتشائم "تحت القمة المشؤومة"³⁴.

فالعناصر التي شكلت المكان هي رمز لعناصر الحياة التي شكلها بمختلف توجهاتها "صخور الجبال والكهوف"³⁵ الصخور قاسية "العين اليمنى سقطت. لتلتهمها الأحجار في الرحلة الوحشية الأحجار الوحشية نهشت اللحم في الأجزاء الطرية من الذراع"³⁶، "الصخر المقدس الذي صار النصارى يحجون إليه "الصخرة تنتصب في نهاية الضفة الغربية للوادي، عند التقائه بوادي أينسيس فيكونان معا واديا واحدا، عميقا واسعا يستمر منحدرنا نحو الشمال الشرقي..."³⁷.

هذه الصخرة لم تعد مجرد صخرة صماء إنها روح تناجي الموجودات وتباركها، تتألق في قلب الصحراء هذه الصخرة التي هي مصدر الماء الذي ليس في النهاية إلا الحياة "الصخرة العظيمة تحدّ سلسلة الكهوف، وتقف في النهاية كحجر الزاوية لتواجه الشمس القاسية عبر آلاف السنين، وقد زينت بأبدع رسوم إنسان ما قبل التاريخ في الصحراء الكبرى كلها: على طول الصخرة الهائلة ينهض الكاهن العملاق، يخفي وجهه بذلك القناع الغامض، ويلامس بيده اليمنى الودان الذي يقف بجواره مهيبا، عنيدا، يرفع رأسه، مثله مثل الكاهن، نحو الأفق البعيد، حيث تشرق الشمس وتسكب أشعتها في وجهيهما كل يوم"³⁸. يقدم الكوني في هذا المقطع حقيقة الإنسان وعلاقته بالحيوان من خلال المكان الذي هو الصخرة والتي عبرت عن فكرة الصراع بين الحياة والموت، هذه الفكرة التي وجدت منذ القدم وكانت أساسية .

تخيلنا الصحراء في هذه الأماكن إلى حقيقة سرمدية مفادها أن التاريخ حقيقة لا تنسى، المكان لم يعد مجرد مكان بل صار روحا امتزجت بروحه. فالصحراء دخلت عالم الكوني فتدفقت في روايته بشيء من الغموض الممزوج بالخوف والرغبة فالخوف من المجهول، هذا المجهول الذي يراه الراوي قاتل والدته أسوف دون سبب، المكان دائما هو السبب، فالسيل الذي عم الصحراء هو الذي قتل أمه.

الصحراء بكل جزئياتها هي رمز للنفس البشرية، فهذا الاتساع المكاني يكشف الرواية ويسمح للشخصيات بالتأمل في ذواتها واسترجاع ماضيها فتتساءل عن سبب وجودها وعن الصراع الذي تعيشه في حياتها.

هذا المكان/ الصحراء من خلال الأرض يغدو بفضل السيل قادرا على النماء والخصب فيتمخض في جوفها البذور فتجود بأنواع النباتات والتي وجدت من العدم شابهت خلق الإنسان وتكوينه، هذه الصحراء المتناقضة تجود بالموث والحياة فهي كما تجود على أسوف بأنواع النباتات المختلفة، جادت من قبل على والدته العجوز بالموث.

ولكن لا يلبث هذا الكرم من السيل أن يذهب مع الجفاف، فيعود أسوف لخوض رحلة الصراع من أجل البقاء الطبيعة إذا أرادت أن تجود لن يمنعها مانع، ولكن حين تريد العكس فستضطر لتحقق مرادها -وها هي الرياح القبلية تقضي في العام الرابع من الجفاف على ما حصله أسوف في هذه الصحاري من جديان ومعزات، فصورة هذا المكان تتبدى بشكل واضح: "كل الأودية صفراء، ذابلة، كثيبة، لم تجد الأغنام ما تأكله" الصحراء أم قاسية قد تطعم أولادها الأفضل وقد تجوعهم فلا يجدون ما يأكلون.

تتحول الأمكنة إلى معابد تسخر الطرق لأسوف الولي، وتجعله يقفز فوق صخورها قفزا ليفلت من الأعداء فتحميه جبالها كأنه وليد تحمله أمه بين يديها، الخلاص دائما يجده في الطبيعة حينما تكون عارية "كأنه سحابة عابرة قد مرت على الأودية السفلية فالت سهولها مكث في الصحراء الرملية مع جماله حتى رآف قلب السماء على الصحراء الجبلية بعد عدة شهور فعاد إلى كهوف مختندوش".

صحور الصحراء إما ملساء أو متوحشة، وكذلك أحجارها كأنياب الوحوش، الصحراء في الرمل ترتسم عليها أثار الأفاعي والسحالي والعظات وجرذان الصحراء، هذه الصحراء التي قد يرق قلب السماء عليها حيناً بالأمطار فيكون النماء والخصب أو العكس، هناك مرض مشترك بين أبناء الصحراء هو الصرع حينما يحرمون اللحم إنه صرع ليس عادياً. لأنه متعلق بإدمان اللحم. تملك الصحراء أفواها مفتوحة، الحيلة تمثلها التجويفات الظلماء والكهوف المعتمة، الأحجار قد تكون رحيمة أحياناً فتحمي الغزال "تحتمي بظلال الحجارة المنيعة طوال النهار"³⁹ بات المكان هو المتحكم في كل تفاصيل هذا الصراع من أجل البقاء - فلسفة المكان الذي نراه يفكر يقسو يقرر بعناصره: صحوره وحجارتة مصائر المخلوقات بكل صرامة وجدّ يصف الصحراء بأفتقها "في الأفق لاحت قمة الجبل مازالت ملفوفة بالقناع الأزرق مع تقدم النهار وعجرفة الشمس يبهت النسيج ويتحول إلى اللون السماوي".

ب- الجبال:

وكانها عمامة زرقاء ولكن العمامة تزول بسبب عجرفة الشمس التي هي دائماً تحارب كائنات الصحراء وترصدتهم هذه الصحراء متقلبة المزاج لا تستقر على شعور واحد فهي تحن أحياناً وتقسو أحياناً أخرى، الجبال في الصحراء مثل الناس: "تلاشت العمامة السماوية عن قمة الجبل فكشفت عن الصلعة قاسية".

يعرض الكوني ضمن هذه اللحظة صورة الصراع الأسطوري الذي كان دائماً بين الصحراء الجبلية والصحراء الرملية:

"كانت الصحراء الجبلية في قديم الزمان في حرب أبدية مع الصحراء الرملية. وكانت آلهة السماء تنزل إلى الأرض مع الأمطار وتفصل بين الرفيقين وتهدي من جذوة العداوة بينهما وما أن تغادر الآلهة ساحة المعركة وتتوقف المعركة عن الهطول حتى تشتعل الحرب بين العدوين الخالدين. وفي يوم غضبت الآلهة في سماواتها العليا وأنزلت العقاب على المتحاربين. جمدت الجبال في (مسك صطفت)، وأوقفت تقدم الرمل العنيد في حدود (مسك ملت) فتحايل الرمل ودخل في روح الغزلان وتحايلت الجبال من جهتها ودخلت في الودان منذ ذلك اليوم أصبح الودان مسكوناً بروح

الجبـال "40. هذا التفسير الذي قدمه الكوني ليس مجرد تخمين بل هو أسطورة حاول أن يفسرها حقيقة مجسدة، الإنسان هو عدو الودان والغزال، لأنه قضى على وجودهما بالصيد. "الآلهة ملئت الشكاوى الطفولية: تارة تتصاعد الرمال وترفع أمرها إلى السماوات مدعية أن الجبال هي التي بدأت الاستفزاز وتارة تقصدها قمم الجبال وتشكو غزوات الرمال فغضبت الآلهة وعاقبت المتخاصمين بشيطان اسمه: الإنسان. أوكلت إليه الأمر فجاء وأقام في الوادي الفاصل بينهما هنا بال الآلهة ولم تسمع شكوى منذ ذلك اليوم" فالصراع أزلي بين الودان والإنسان أساسه المكان، الجبال تتولى مهمة حراسة الصحراء الحجرية. وتعرف خباياها "الجبال الغربية العالية ذات الصخور العمودية التي تقف كالأشباح تحرس الصحراء الحجرية وتراقب الصلح في الهاوية"41.

ومن أوصاف الجبال "ينطلق إلى السفح نحو ذلك الجزء الوعر الذي تبرز فيه الأحجار الحادة كما تبرز الأنياب من أفواه الوحوش"42.

"شعور الجبال بآلام البشر" عادت الجبال تردد الصرخة بأقوى منها ا...ا...ا"43

"انتهى صفاء الصحراء الرملية الممتدة المنبسطة، الرفيعة بالعباد. وبدأت عراقيل الصحراء الجبلية الغاضبة هذه الملاحم الصارمة تستقبل بها هذه الصحراء الرحل القادمين من الصحراء المعادية الرملية"44. ويبرر ذلك الكوني بالحقن الدفين من أيام الصراع بين الصحراء الجبلية والصحراء الرملية

الصحراء الجبلية: "ها هي تنظر إلى الزوار القادمين من غريمتها بالكراهية.. حذرهما من مفاجآت الصحراء الجبلية ولؤمها"45 وهذا ما تثبته المقاطع الروائية فيما بعد حيث تنتقم من والد أسوف وأسوف ووالدته ومن قابيل لأنهم تعدوا على حرمتها وأرادوا العيش فيها وعاثوا فيها فسادا.

هذا التوظيف للصخور وظيفي في الرواية حيث جسد دور الشخصيات العدائية وأحيانا شكل الإطار العام للرواية وللفضاء الصحراوي.

ج- الهاوية:

في الرواية لا يلبث القدر أن يوقع بالإنسان وينال منه "قريبا سيسقط في الهاوية ... سيسقط عاجلا أم أجلا فماذا ينتظر؟" تغدو الهاوية مكانا في هذا الجزء من الرواية، إذ هي التي تحدد المصائر وتضع النهاية الحتمية لحياة كل من يسقط فيها. فهي الموت المصير الحتمي لكل حي، هذا القدر الذي يترصده دائما لماذا لا يبادر؟؟ وتهاطل عليه فلسفته وحكمته التي ورثها عن والده كما ورث قدره ومطاردته للودان " من اختار أن يعيش طليقا في الصحراء فعليه أن يتولى أمره بنفسه ... هل هذه هي النهاية ؟ هل الابتعاد عن الناس جريمة ثمنها الموت ؟ هل العزلة كفر بالله ؟ لماذا يعذب نفسه." ⁴⁶

تورط الابن في مطاردة الودان في محاولة لصيده، إذ انتهى به الأمر إلى قبة هاوية عاجزا عن النجاة من الهلاك فأنقذه الودان في لحظة اليأس وهو على شفير السقوط في الهاوية، وقايل كانت نهايته الجنون بسبب انتهاكه للقوانين الطوطمية هذه النهاية كانت خاتمة لسعيه الجنوني الخائب وراء صيد الودان، وإصرار الراعي على الصمت والالتزام بإخفاء أسرار الودان والتضحية بنفسه أدت إلى قتله مذبوحا على صخرة الودان المقدس المحفور على حجر الأقدمين.

فالهاوية في الرواية لها دلالة الجزاء وقد استوحاها الكوني" من الفكر الصوفي عند الإمام الغزالي وهي الدرجة السفلى بين طبقات الحساب وهي السابقة " ⁴⁷. ودلالة ذلك في الرواية أنها وسيلة للتطهير وعمل الكفارة التي يقدم عليها الإنسان حتى يصبح طاهرا مكفرا عن ذنوبه "يا رب ماذا يريد أن يفعل؟ أين يجزني؟ إلى الهاوية قفز في الهوة المجهولة في أسوأ مكان سمع كيف ارتبطت قرون هذا الثور المتوحش بصخرة وبعدها بلحظة واحدة قصيرة . كومضة البرق وجد نفسه معلقا في نتوء صخرة في أعلى الجبل وساقاه تتدليان في الهاوية الأبدية" ⁴⁸.

وأي قدر ساقه إلى هذا النتوء فتشبث به فوق فوهة الهاوية التي لا نهاية لها " فالقلب وحده من يتغلب على الهاوية إذا تخلت عنه قوة القلب تهاوى في الهاوية...لولا الله في القلب لسقط من زمان في الهاوية الظلمات التي تشده من رجليه إلى أسفل " ⁴⁹.

فتظهر الوظيفة الدلالية للهاوية في الرواية مكانا تطهر فيه الأرواح عن طريق الأجساد لتصل إلى مصاف الخلاص والصفاء وبالتالي يكون الحلول، وقد استعاض؟ الكوني عن العقاب الرباني بسقوط قابيل في الهاوية، الهاوية هي جهنم والعياذ بالله والتي ستكون عقابه.

هذه الدلالة التي تطل علينا من الألفاظ التي يحيلنا عليها (فالبحث في النص وفي دلالاته يتم من خلال ولكن يعترف الودان وبوصفه الشيطان الرجيم الذي هو أسوف الودان الذي رماه في الهاوية حينما نفذ قابيل جريمته وفصل رأس أسوف المصلوب عن جسده تحققت التعويذة المكتوبة على الحجر "أنا الكاهن الأكبر".

د- التواءات:

يحمل هذا العنصر المكاني دلالة المنقذ والحامي "فذاك حشره في شبرين كما يحشر في القبر، ففكر أسوف أن هذا قبره، ولكن تذكر النذر ذاك النذر الذي خانته والده فقتله هو أيضا خان النذر إذن.... مصير الموت هو أقرب للإنسان من أي شيء آخر هل هو قريب إلى هذا الحد بحيث تكفي ومضة إعياء يرخي فيها أصابع يديه فيهوي في الهاوية؟"⁵⁰. الخلاص يأتي دائما حينما يذكر التواء.

فحياة أسوف كانت معلقة بالتواء "وهدد التواء بالانسلاخ من الصخرة"⁵¹ فتهدده كان من أجل الموعدة وأخذ العبرة.

ويبقى دائما التواء سبب الحفاظ على الحياة مثال ذلك ما وقع لقابيل "تشبث بالتواء في اللحظة الأخيرة"⁵² فالقدر هو الذي يحملنا إلى حيث لا نتوقع يجعلنا فيما لا ندرك وما لا نفهم، أسوف لا يدرك الحقائق إلا بعد أن تقع "الجرح لا يبرد إلا عندما يبرد الدم"⁵³.

سمع كيف ارتطمت قرون هذا الثور المتوحش بصخرة وبعدها بلحظة واحدة، قصيرة، " كومضة البرق وجد نفسه معلقا في تواء صخرة في أعلى الجبل وساقاه تتدليان في الهاوية الأبدية لا يعرف كيف ولا متى تخلى عن الحبل المشؤوم وأي قدر ساقه إلى هذا التواء فتشبث به فوق فوهة الهاوية التي لا نهاية لها (..). لم يتبين شيئا في العتمة. جسم يتحرك أمامه ويجرّه بقوة هل هو الجن؟ استمر الجسم يتحرك يجرّه من فم الهاوية. لامس صدره التواء، فأحس أن كل الجبال التي كانت ترقد على صدره قد انزاحت مرة واحدة. نجا. نجا. أغمض عينيه وفتحهما عدة مرات قبل أن

يركز في الشبح الصبور إنه الودان في مكانه المكسو بالأحجار الشرهة، صرخ بصوت مخنوق أنت أبي لقد عرفتك انتظر أريد أن أخبرك... أغمي عليه⁵⁴

تواصل هذا الاختبار القاسي طيلة سبعة عشر صفحة من الصفحة 62 إلى الصفحة 78، إنها العلاقة الحميمة بين الأب والابن "هو والمرحوم والودان العظيم شيء واحد لا يفصل بينهم شيء"⁵⁵ قتل الودان الذي كان مكلفاً به قابيل ابن آدم "يا قابيل يا ابن آدم، لن تشبع من لحم ولن تروى من دم، حتى تأكل من لحم آدم، وتشرب من دم آدم"⁵⁶ هناك حاجز أخلاقي يجعل أسوف/ الكوني لا يقتل الودان بنفسه وهو الحاكم-الأب. وتتولى التواءات مهمة التفكير في عواقب الأشخاص.

هـ-النباتات والحماة:

تنخر الصحراء بنباتات شتى منها أشجار السدر والطلح والرمم بعضها نبت بالسوق؟ كما تنخر المرتفعات بالأعشاب لأن الماء الفائض ينبع منه" فتذكر كيف تخلت عنه الطلحة وهربت ظلها عند لجوئه إليها بعد سقوطه من الصخرة"⁵⁷.

تمثل الحماة رمزا للسخاء والعطاء "كانت الحماة تفيض بالحياة. وتعب بقطعان الغزلان.. الأمطار السخية لا تنقطع طويلا إذا شحت السماء وبخلت بالماء الوفير هذا العام فان شوق السماء إلى الأرض في السنة التالية ينقذ البذور من التلف والانقراض"⁵⁸، ولكن لا تلبث هذه الحماة حتى تعاني الويلات بسبب البشر "مضت سنوات قليلة ثم تم اختراع ذلك السلاح الشيطاني خصيصا لانتهاك الحماة وإبادة القطعان الآمنة"⁵⁹.

"وواصل تمشيطة للحماة بحثا عن الرؤوس الشاردة التي تراجعت إلى الجنوب واحتمت بمرتفعات جبل الحساونة"⁶⁰. مثل قابيل والأمريكي جون باركر الطرف المضاد الحماة فانتهاك حرمتها وقضايا على خصوبتها التي هي حياة لأسوف وأسرته التي أفناها الانعزال، الحماة كانت الخيط الذي يربط الأسرة بالحياة ولكن الشد المتواصل للأطراف المضادة قطع الصلة بالحياة بشكل تدريجي، وكانت النهاية بالقضاء النهائي على الأسرة التي هي مجتمع مصغر بفكره وعقيدته، متأرجح بين قناعاته في الانعزال والضغط الخارجي الذي لا يقيم اعتبارا لهذه المبادئ والقناعات.

و- الكهوف:

وكأنها رحم أمه الذي يوفر له الرزق والحماية فحتى فقدان القطيع لم يؤثر فيه فالسماء أمه التي ترأف به دائماً يقول واصفاً "انتهى صفاء الصحراء الرملية الممتدة المنبسطة الرفيعة بالعباد وبدأت عراقيل الصحراء الجبلية الغاضبة"⁶¹.

المكان يذكر أسطورة الحقد الذي عرفه منذ القديم بين الصحراء الجبلية والصحراء الرملية فقد كانا في معارك دائمة، والآلهة عجزت في محاولة الإصلاح أو تخفيف العداء، فالمكان صار يحقد ويكن الغضب لمن لا ينتمي إليه "ها هي تنظر إلى الزوار القادمين من غريميتها بالكراهية...الصحراء الجبلية لثيمة لا تخفي غير الغدر في طياتها حذرهما من مفاجآت الصحراء الجبلية ولؤمها"⁶².

ز- الحيوانات:

نوع الكوني في توظيفه للحيوانات المرتبطة بالبيئة الصحراوية، منها الطيور المهاجرة من الصحراء إلى الشمال وكل شيء يهجر الصحراء مع اقتراب فصل الصيف الغزلان هاجرت إلى الجنوب، الطائفة سماها الجندب (الجراد) ومعروف أنه يعيش الفساد في الأرض فكذلك كان حال الهليكوپتر وهي تجوب الصحراء بحثاً عن الغزال "هذه الأرض الصحراء تغزوها الجراح وينزف منها الدم، جرح يكاد يلتئم في الأرض الرمادية المعتمة"⁶³.

الأرض في الصحراء تعاني من الألم كآلم الإنسان، في هذه الصحراء " تتناطح رؤوس النخيل وكأنها تقرأ التعاويذ السرية الخاصة بمقاومة الجن، كل شيء في الصحراء يرفض هذا الوافد الغريب ولا يريده فيها لأنه مصدر فساد لها، الجبال في الصحراء مثل الناس تلاشت العمامة السماوية عن قمة الجبل. فكشفت عن صلعه قاسية... ودان وغزلان وجاموس وحيوانات كثيرة أخرى. ضخمة الحجم وطويلة السيقان لم يشاهدها في صحراء اليوم"⁶⁴.

- المعز: لم يكن لها الحظ الوافر في الرواية فقد كانت مهمشة ولا تحمل سوى دلالة المرأة اللعوب " انه يعاف لحم الماعز"⁶⁵ المصابون بمرض حب اللحم أمثاله لا يأكلون لحم الماعز في العادة. كثيرون مثله في الشمال، فما سبب العزوف عن لحم المعز بالذات وخاصة من أهل الشمال هل هو الاحتقار؟ أم أن لها رمزية معينة في ثقافة الطوارق، المكان هو دائماً المأوى؟ للحيوان ولكن لكل

نوع مأواه الخالص" ماذا يقول الغزال لنفسه وهو يرى عدو الكائنات ؟ يقول السهل وماذا يقول الودان عندما يتعرض لبلاء عدو الكائنات؟ يقول الجبل الجبل، الجبل للغزالة مصيدة والسهل للودان مصيدة"⁶⁶. فالودان حصنه الجبال.

- الجمال: قلما يذكرها في الرواية ومن العبارات التي يصف فيها هذا الحيوان "طابور الجمال الطابور المحملة بالأنقال والبضائع"⁶⁷ ولا يخفي تغزله وإعجابه بالودان " ثم يحرك أسوف بشرر الوحي أن التيس العظيم الجميل العاشق ليس تيس ماعز وإنما هو ودان حقيقي "⁶⁸.

- الأبلق: يغدق عليه والد أسوف بالمحبة والعطف "يحتضن رأس المهري ويردد هل رأيت في الصحراء جملاً أجمل منه؟ هل عرفت أطوع وأصبر وأشجع ؟ هل رأيت أذكى وأعقل ...الحيوان أكثر وفاء من الإنسان"⁶⁹.

- الودان: "المهيّب المتوج بقرنين ملتوين أيضا يوافق إلهه ويوحي بأنه قبل الصلاة وفاز برحمة ربّ المعبد لم يدر أسوف بأنه اخطأ الاتجاه فلم يوجّه ركعاته نحو الكعبة وإنما نحو الصنم الحجري المنتصب فوق رأسه في قعر الوادي العميق"⁷⁰ فهذا التصوير للظاهرة الدينية يجعل الودان-الحاكم يمتص كل القداسة حتى لحظة الصلاة ويجعل من فعل التعبد ظاهرة عشوائية، فالمكان دائماً يفرض جبروته على الرواية لأن الودان كحيوان المجسد على الصخرة تحكم في سلوكات أسوف وحرك أفعاله. وسلوكا لا شعوريا يتجه نحو الحاكم أولا وبالأساس. وفي هذا النقد الساخر رغبة في التحرر من أية سلطة دينية كانت أو سياسية أو نفسية، وقد جسد قابيل الشخصية المستهترّة بكل مقدس خاصة الحيوان الذي يتناوله الكوني ويذكر مشاعره اتجاهه من ودان وغزال ومعزاه ومهري وأبلق فهو يحب الغزال ويعشق أبلقه وينظر للمعزاة بأنها لعوب لأنها أنثى. والودان "فهذا العملاق لا يملك أن يكون مجرد حيوان بل هو روح مسكونة تحس وتشعر أنه إنسان"

- الغزالة: يقول الكوني واصفا هذا الجميل "هذا هو الغزال الذي حلمت به، كما حلم كل أطفال الصحراء، أن تمسكه بيدك وتربت على رقبته الرشيقة، تلامس شعره الذهبي، تتأمل عينيه الذكيتين الشقيتين. وتقبله في جبينه وتضمه إلى صدرك. فيه سحر المرأة وبراءة الطفل تصميم الرجل ونبيل الفرسان نخيل العذراء وشقاء الصحراء رشاقة الطير وسر الخلاء"⁷¹.

كل هذه السطور وغيرها سخرها الكوني لوصف هذا المخلوق العجيب هذا المخلوق شخصية جسد دورها هايل الضحية في الأسطورة التي وظفها، في روايته فكانت طيبتها ثمن هلاكها كان مثل هايل طيبا سمحا لا يحب الغدر ولا يستعمل الخديعة والحيلة في هذه الشخصية التي يرسم ملامحها الكوني بأنامله عن طريق التجزيء لا تنتهي إلا بانتهاء الرواية التي نشعر أننا عشنا معها رذها من الزمن، نشخص وجودها على وجه الحقيقة وتزيد معاناة هذا الطيب في كل فصول الرواية بصورة واضحة بكل المقاييس .

وقد بقيت الغزاة مكانها بعد هجرة القطيع مضحية بنفسها لإنقاذ قابيل وأبويه من الموت عطشا في الصحراء، فهي تجسد فكرة التضحية بخلق علاقة أخوية طوطمية مع بني البشر. الودان "روح الجبال" أقدم حيوانات الصحراء الأفريقية أسبق الكاتب على هذه الشخصية هالة من القدسية والأسطورية، هذه الشخصية المحورية التي تدور الأحداث في فلكها وتقود الآخرين إلى حتفهم.

ترسم الرواية في تطورها عددا من المسارات الفكرية والرؤية تجسدت في البحث عن الحرية عن طريق العزلة في الصحراء جسدها الراعي وزوجته وابنها أسوف، الحفاظ على البيئة الحيوانية التي تمثلت في أسطورة اتحاد الإنسان مع عناصر الطبيعة ومع العالم الحيواني الطبيعي كما في الطوطمية التي تقيم أواصر قرابة ما بين جماعة من البشر وحيوان يمتلك القدرة على حماية البشر، وبالمقابل أن يراعوا الامتناع عن صيده وتحريم أكل لحمه وحمايته من الصيادين الآخرين.

فالمكان في علاقة بالحيوان الشخصيات "الودان والغزال" يكون إما مساعدا على النجاة أو يجرها إلى حتفها. فالجبال كانت دائما الحامي والحصن لها في حين الوديان هي دائما مكان أصابتها ونهايتها، السماء دائما تبادل الأرض المحبة وتزرع في جوفها ما يدر عليها الخصب والنماء فتغدو الأشجار مزهرة ويكون الخلاص "تخضر السهول في الربيع فيكثر الترفاس والطيور والأرانب والغزلان"⁷².

الصحراء تتحرك بتحرك المخلوقات فيها فتحس بالفرح والنشاط حين تسلم فلذات كبدها من الصيد "وعندما تتحرك في فرارها الجماعي يتحرك السهل تتحرك الصحراء كأن الصحراء نفسها هي تتحرك وتفر هربا من بطش الإنس"⁷³

الصحراء أم عطوف على أولادها ولكن الشياطين لا تتركها لحال سبيلها هذا الشيطان الإنسان يحمل إليها آلاته الوحشية فيحولها إلى جذب وقط ويبيد أولادها على مرأى ومسمع منها "ثم اخترع ذلك السلاح الشيطاني خصيصا لانتهاك الحمادة وإبادة القطعان الآمنة" في هذه الصحراء حينما يموت الهواء وتسكن الريح يصطاد قابيل وجون باركر الغزلان لأنها لا تستطيع أن تشم رائحة الإنسان "الغزال أكثر الحيوانات حساسية ويقظة في الصحراء يشم رائحة الإنسان من أبعد مسافة"⁷⁴.

الصحراء بجبالها ووديانها وسهولها مراتع لحماية أبنائها واحتمائهم بمرتفعات جبل الحساونة، ومن العجب أن تكون الأشجار والصخور دائما في نهم وجشع فهي تسعى لعقاب كل من يريد الحياة ويتمسك بها، يصف الكوني كيف تعرضت الغزلان للأذى في رحلة هجرتها "الأشجار الشرسة السوداء نهشت نصيبها من الغنيمة وسلخت حوافر القطعان المهاجرة بوحشية"⁷⁵.

الصحراء التي كانت مأوى المخلوقات الجميلة باتت تهدد حياتها وتقطع نسلها، هذا الفناء الذي اشترك فيه ابن آدم الذي اخترع السلاح الشيطاني يصبح الفكر الصوفي من خلال الحكماء ورجال الصوفية الذين يتعوذون من شيطان الإنسان في صلواتهم، إن صراع المخلوقات الجميلة لم يصبح من أجل الكلا بل صار من أجل المكان الذي يحمي نسلها، تبقى الغزالة وحيدة مع وليدها في جبل الحساونة الصحراء هي دائما رمز الحماية.

ي-الشمس:

كوكب من كواكب المجموعة الشمسية ولكنها في رواية الكوني غدت إنسانا يحس تصيبه الهموم حينما يفارق الصحراء "في لحظة الانكسار تبدو الشمس دائما مهمومة حزينة أو ربما لأنها تودع الصحراء إلى مثواها اليومي الخالد".

فإذا بالصحراء كل يوم تولد وتموت لأن الظلام يحل بها هذه الشمس هي القاسية في صباحها "وفي الصباح تبدو قاسية تتوعد وتهدد الكائنات بالتكيل والعذاب"⁷⁶ ويفضح العلاقة الحميمة بين السماء والأرض "فإن شوق السماء إلى الأرض في السنة الثالثة ينقذ البذور من التلف والانقراض"⁷⁷

ومن الأوصاف التي نعت بها الشمس "الشمس القاسية عبر آلاف السنين"⁷⁸

"اختفت الشمس خلف الجبل، ولكنها استمرت تسكب أشعتها الحمراء على السهل المعاكس عند الغروب يروق للشمس أن تكسو الصحراء بغلالة حمراء من الشعاع"⁷⁹.

"تسللت الشمس خلف الجبال المتوجة بالصخور العمودية. فانتشرت الظلال في السهل المقابل كطابور من جنود الجن"⁸⁰.

تمظهر الشمس مستسلمة للجبال لتترك المجال للوديان كي تتكلم، الشمس كوكب وهي دليل الحقيقة والنور ولكنها حين تغيب تترك الظلام للبشر وللجن حتى يفعلوا ما يريدون ويظهر دور النجوم من بينها نجم. أيدي الذي "يهتدي النائه في الخلاء به كل النجوم تتحول وتتنقل وتبدل مكانها وتغيب أما هو فيبقى ثابتا حتى الصباح"⁸¹ هذا النجم الذي هو قلب صاف يحرس صاحبه من الظلال والتهيه، ولا ينفك يتبرم من جو الصحراء وما تفعله الشمس بطبائعها القاسية "الشمس قاسية منذ الصباح النار جهنم. يا ربّ أين نهرب منك يا شمس الصحراء ؟"⁸²، "الشمس مازالت قاسية برغم حلول العصر وانحرافها نحو الغروب"⁸³، "ترزحت الشمس عن العرش. وبدت عليها مسحة الهزيمة وهي تنكسر نحو الغروب في لحظة الانكسار) الشمس تبدو دائما مهمومة حزينة"⁸⁴.

"في الصباح تبدو قاسية تتوعد وتهدد الكائنات بالتشكيل والعذاب"⁸⁵.

"مع تقدم النهار وعجرفة الشمس بحثوا عن مأوى يحميهم من شر الشمس تعجرت الشمس بشعاعها مع الأصيل"⁸⁶، وهي لا ترحم، دائما قانطة ممن يزور الصحراء "بحثوا عن مأوى يحميهم من شر الشمس"⁸⁷.

الشمس "بعد الشروق دائما ساخطة متغترسة انتقامية لا تنكسر شكوتها إلا مع الزوال عندما تدركها الشيوخة تركع ذليلة. تتوسل قبل أن تنكفي نحو الفناء اليومي"⁸⁸ موقف الكوني من الشمس دائما حاضر ويعبر عن امتعاضها في تعاملها مع كل الموجودات "تعجرت الشمس بشعاعها مع الأصيل. فعجز أن يفتح جفنه الشمس بعد الشروق دائما ساخطة مفترسة انتقامية"⁸⁹. الشمس هي واحدة من الكواكب في رواية الكوني تغدو شخصية عكسية متعجرفة في بداية تشكيلها ولكن كلما ازداد عمرها انكسرت شوكتها وقت الزوال "عندما تدركها الشيوخة تركع ذليلة تتوسل قبل أن تنكفي نحو الفناء اليومي "هذا حال الشمس .

7- رمزية المكان:

يرمز الكوني من خلال هذه الأسطورة إلى الحفاظ على البيئة الحيوانية الصحراوية من الانقراض بمنع صيدها والاعتداء عليها، إذ أظهرت النهاية المأسوية لشخص الرواية بجنون قابيل وموت والد أسوف وموقف الهلاك الذي حدث لأسوف، إذ أنقضه وجعله يتراجع عن صيد الودان والتضحية بنفسه من أجل العهد، فالوادي رمز للحياة واستمرارها من منطلق معين، "الصخرة تنتصب في النهاية الضفة الغربية للوادي عند التقائه بوادي (أينسيس) فيكونان معا واديا واحدا عميقا واسعا يستمر منحدرًا نحو الشمال الشرقي حتى يصب في (أبرهوه العظيم) في مساك ملت"⁹⁰ ويصف الجبال كذلك، "ثم أصبح يطلق على الأودية والشعب والجبال أسماء الأشباح المرسومة على صخورها فهذا وادي الغزلان وتلك شعبة الصيادين"⁹¹ ويتجاوز هذا الأمر، بأن الإنسان هو المسؤول عن نقض العهد المبرم في الطوطمية لهذا استحق عقابه، وقد رأينا تقسيم ذلك إلى العناصر الآتية:

أ- الحياة والموت:

الموت والحياة: كان الأمل يجذبه مرة أخرى ويتذكر وصية والده "الصبر كلمة السر" فيكشف له حجاب الخوف في مساء الظلمة الذي ساد حوله واستجمع قواه فربط جأش الرجل في قلبه لا جسده إذا تخلت عنه قواه "القلب تهاوى في الهاوية تذكر الله وتذكر وجوده في قلبه هاته وصية والده، فلولا وجود الله في قلبه لسقط من زمان في هاوية الظلمات التي تشده من رجله إلى أسفل يسحبه الجني الخارق من الهوة السحيقة في حركة سريعة خاطفة فيعيده إلى الحياة بعد يأس وشقاء مضن"، فالودان هو النجاة والخلاص هو الضحية والجلاد، تجتمع النقائص والمتضادات في هذا المسكون، رأى والده في عيني الودان، فقد عاش حالة ثلاثة بين الحياة والموت، بين الوجود والعدم هاته الحالة باتت حالة أسوف بعد معركته الضارية، فالموت والحياة هما الحالتان الطبيعيتان لكل حي ولكن الذي طرأ هو تلك الحالة الثالثة التي ذكرها عن حاله حين كان معلقا على الصخرة، والتي تشابه حالة أخرى نذكرها في موقفه "أسوف ها هو الآن يبتعد عن الحياة، ولكنه لا يدخل إلى الموت، إنه يقرع بابا يقع بين الموت وبين الحياة"⁹².

يطرح الكاتب فلسفته عن الحياة والموت والوجود والعدم وعن حياة أخرى بينهما "الحالة الفاصلة بين الموت والحياة، الوجود والعدم" فهي ليست عدما وليست وجودا تلك التي عاشها أسوف وهو على شفير الهاوية معلقا بين الحياة والموت، وعاشتها أمه عندما وجد أصابع يدها الممزقة وهي متشبثة بأشجار الطلح، وعند الحيوانات ف"المعزة تسحب الهواء تنفس طويلا بعد ذبحها، أما الودان المذبوح فينهض واقفا بدون رأس ويجري مسافة طويلة في العراء قبل أن يستسلم نهائيا ويسلم أمره لله.. الحال مع العظاية أسوأ، تذبحها في الصباح وعندما تلقى في النار لتشويها في الليل لا بد أن تقفز من الجحيم وتجري في العراء"⁹³.

الرواية نموذجا للرواية الفكرية، فهي تحوي قيما فكرية وفلسفية وصوفية تداخلت مع الأسطورة، في بحثها عن ماهية الحرية ومفهومها، وعن تحرير الإنسان من كل القيود عن طريق فلسفته الصوفية معتبرا أن العيش في تلك الصحراء النائية بحرارتها وقسوتها وصعوبتها، نوع من التطهير للإنسان من ذنوبه عن طريق تعذيب جسده ليصل إلى الصفاء والنقاء الروحي المنشود عند الصوفية .

يوظف الكاتب فلسفته الصوفية المتمثلة في إحلال الروح، ليؤكد بها فكرته الأساسية وهي حماية البيئة الحيوانية من الصيد العشوائي، فهو في هذه الرواية يدين الاعتداء، ابتداء من اعتداء البشر بعضهم على بعض وانتهاء باعتداء البشر على الحيوانات، تتداعى الأفكار لتدور في فلك الفكرة الرئيسية التي يؤكد لها مبدأ التضحية، فقد ضحت الغزالة بنفسها من أجل البشر وكذلك ضحى أسوف بنفسه من أجل حماية الودان، هذه العلاقة الجدلية بين تضحية الغزالة وتضحية أسوف هي المحور الرئيسي الذي تدور حوله الرواية، فالأشياء والأحداث والأشخاص تتحرك ضمن مركزية هذه الفكرة، حيث يطمح البناء الفني للرواية من سرد وأحداث محكمة بالزمان والمكان، إلى تكوين صورة إجمالية لأفكار الكاتب وفلسفته في مناخ أسطوري يستمد وحيه من الأجواء المليئة بالجانب الديني والسحر والصوفية لأبناء الطوارق، يعيش أسوف وهو مصلوب إلى الصخرة في عالمه البرزخي لا هو في الموت ولا في الحياة "وراء باب بين السماء والأرض"⁹⁴.

ب- الصراع والصبر:

هذه الفلسفة التي تبين الصراع الجدلي القائم في نفس أسوف ووالده قبله (الحرية، الموت، العزلة، العذاب) هذه القضايا الصوفية التي تخضت في نفسيتهما وتناست حتى أضحت فكرا وعقيدة لهما، ولكنه رغم ذلك ينتظر معجزة الخلاص فالمعجزة لم تنقذه ولم تنقذ والده فليس بينه وبين الموت سوى قبضة، سوى جبل النجاة هذا الذي يتعلقه المتصوفة حين يسبحون في ملكوت السماء في نوباته المعتادة فالفاصل بين الموت والحياة قصير ولكن الحياة هي النتوء، هي الأم لأن النتوء هو الذي يربطه بالحياة فالحياة هي الألم، ولن يكون الخلود إلا بالموت ولم تترسخ مبادئ والده فيه إلا بعد موته "لماذا وهب لنا الله الحياة"⁹⁵.

تصبح الحياة عند الكوني مرادفة للحرب والصبر وللحيلة وكل هذا فإذا أردت الحياة عليك أن تملكها كاملة، فحياة الصحراء هي حياة أخرى للإنسان استحال الصحراء إلى وحش له أنياب يفتك يغدر يأخذ بكل أساليب القوة أشجاره ليس كالثمر (الأشجار الوحشية)، يبرز قلة الأحجار الحادة كما "تبرز الأنياب من أفواه الوحوش". استمر السحل عبر أنياب السفح الترس"⁹⁶.

فأدوات القتل هذه تملكها الصحراء تملكها قم الجبال والسفوح وهذا ما يدل على علوها مما يعني امتلاكها سلطة القرار والقدرة على التنفيذ متى تشاء وفي لحظة يصبح الودان هذا العملاق المخلوق العجيب ضحية وجلاد لأسوف ضحية لأنه كفّ إلى صيده وجلاده، لأنه تمنع عنه ولم يترك فرصة اقتناصه والفوز به في مكان حلول فيه بحث عن الخلاص فعرف لا يستطيع الصعود إلى الأعلى ويستحيل أن ينزل إلى الهاوية فتهدده السماء بإسقاطه في الهاوية أن هو حاول الصعود للقمّة، هذا القدر الذي اختاره له الودان لا هو في القمة ولا هو في الهاوية هذه المنزلّة بين منزلتين تصعد من مهمته وتأنسن الصخور فرة تكون متوحشة وحيناً آخر تغدو بلهاء.

ولكن هذه التجربة جعلته يقف على الصراع والصبر: صراع آخر مع الحياة "لن يتألم أبداً. لا ألم هناك. الألم هنا في الصخرة، في التشبث بالنتوء، في الحياة، النتوء في الحياة، ما أقسى الحياة"⁹⁷ ولكن هل استطاع بعد هذه التجربة أن يخوض تجربة الحس فيتحقق إنسانياً (امرأة/رجل)، وهل قاده ذلك إلى خوض تجربة ترك العزلة فاختلف بالشعب عزلة المثقف المختلف فالمرّة الوحيدة

التي وجد فيها أسوف نفسه مع الآخر بشقيّه الإنساني والحضاري حدث ما يشبه المعجزة فتحول إلى ودان "شاهد إنسانا يفلت من الأسر ويتحوّل إلى ودان يعدو نحو الجبل يتقافز فوق الصخور في سرعة الرياح غير عابئ بمطر الرصاص الذي ينهال عليه من كل جانب (...) رصاص الطليان؟"⁹⁸، وهذه ليست معجزة بقدر ما هي رمزية عن العجز أمام مجابهة الآخر. "الصبر على البلاء هو الحجاب الوحيد الذي يحمي من الأشرار والوحوش"⁹⁹ وقوله: "لولا الصبر - السر الوحيد القادر على قهر الصحراء لما نجا من تلك المصيدة فهل ينقذه الصبر من هذه المصيدة أيضا"¹⁰⁰.

ج-الأصالة والبحث عن الذات:

تكتسب الصحراء في سياق الرواية أبعادا مغايرة، لكونها ذلك المستوى الجغرافي بعزلته وقساوته، فهي تمثل قيم السمو والصفاء والنقاء، وتعني كذلك الحرية، وتمتد مساحة للتأمل والتفكير لإشباع الفضاء الروحي، فهذه العوالم لا يدركها إلا ابن الصحراء، لكن في المقابل هي أرض الخطر حيث لا علامات دالة ولا ماء ولا ظل، إذ لا تسمح لأي معتد بامتلاكها وانتهاكها أو العبث بها، فمن تسول له نفسه يكون مصيره الهلاك والموت، فأصالة المكان الصحراوي تتجسد في الفرد حين يحافظ على هويته ويعيش الحرية بعيدا عن المدينة التي هي رمز التفسخ عن الذات.

الحدث قدر يندساق إليه أبطال الرواية بصورة تراجيدية، حيث يصور الكاتب المصائر المأسوية لشخص الرواية كل حسب اختراقه وانتهاكه لحزمة العهود والمواثيق، فحينما خرج الأب عن العهد الذي قطعه على نفسه بعدم صيد الودان وطارد ودانا، استدرجه ذلك الودان الذي سبق أن أنقذه من الهلاك إلى حتفه عند قمة الجبل؛ لأنه خالف النذر، لأن أسوف يبحث عن ذاته ووالده، كذلك ربح مبدأ العزلة ليكتشف ذاته، وحافظ أسوف عليها لأنها تراث أجداده وماضيهم الأصيل.

د- بين الصحراء والمدينة :

الصورة المقدمة عن المدينة هي صورة تدلّ على تشكيل بدائي للدولة، فالطرائق الصوفية التي تحكم عالم البشر وطريقة تفكيرهم تقيم علاقات مع الأجنبي، أساسها المصلحة وعن طريق أهل المدينة دخل الأجنبي إلى الصحراء بسياراته اللاندروفر وخرائيشه وطائراته الهليكوبتر بحثا عن

النفط ولحم الغزال" فمن ذاق لحم هذا المخلوق حطّم في نفسه العجز ومزّق حجاب السوى؟ ووقف على رؤيته في المقام" ¹⁰¹، ولحم الودّان "السّرّ الإلهي في الودّان"، ولهذا حين تخاصم جون باركر وقايل قال الأخير" إذا قت بإيادة الغزلان فبفضل مساعدتك زودتني بالسيارات وبنادق الخرطوش وأكلت من الغنائم نصيبك وأكثر من نصيبك الدودة التي تدغدغ أسنانك أشرس من الدودة في أسناني" ¹⁰²، ولكن أين أسوف من كل هذا؟ أين المثقف وأين إنسان حضارته المتشبث بالتراث يحمله ولا يتفاعل معه "نزييف الحجر" هو صرخة الإنسان البدائي الذي مازال يعاني من مخاض بلا نهاية، يدفعه الأب إلى اعتزال البشر والعيش في الحماة والكهوف ليحتمي بها، بينما يجسد بشاعة المدينة فلا يذكرها إلا بصورة سلبية فداثما تجلب المشاكل والسوء للصحراء وأبنائها. قايل من المدينة وافسد الصحراء وكذلك مسعود وجون باركر.

إن عالم الصحراء المتفرد الذي يضعنا فيه إبراهيم الكوني يجعلنا نشعر وكأننا في كوكب آخر غير الأرض، ومع نوع آخر غير البشر، هذا العالم الذي لا يخرج عن كوننا، ولا عن نباتاتنا في الصحراء، فالجبال هي الجبال والصخور هي

الصخور، ولكن اجتماعها يغربنا ويجعلنا نشعر بالتوحد مع ذواتنا، لأنّ حياتنا تصرف ذواتنا، فهو يعري الحقائق أمامنا ويجعلنا نغوص في ذواتنا، ونعاق هذا الكون في ألفة وحبّ دون زيف، وخوف بإدراك يفتض هذا الكون وموجوداته المتوالدة بصورها المختلفة. في ذواتنا الغائبة في حياتنا فدخلنا إلى عالم خلود الأرواح الأبدية التي لا تحيا في الأجساد فقط.

كانت حياة أسوف ووالده ضمن المكان الذي سكناه وسكنهما الصحراء بسبب الفلسفة التي اختارها والرؤيا التي تبناها "إذا قررت أن تعيش وحيدا فعليك أن تصطاد الودان وحيدا هذا كالعطش كالجوع، كالتيه، قدر العزلة قدر الصحراء ؟ جعل لكل شيء ثمن" ¹⁰³.

خاتمة:

كان تجاهل الكاتب مصير القادم من الخارج مع أنه كان مسؤولاً عن الخراب والدمار للبيئة الصحراوية بجلبه للبنادق والسيارة اللانفورد والطائرة المروحية، لأنه يعتبر أبناء الصحراء هم المسؤولين عن أرضهم، وأنهم هم الذين يمكنون الغريب منها أو يدافعون عنها، والكاتب يؤكد أنّ الشر متأصل في بني آدم ولم ينشأ ظروفًا موضوعية عايشتها الشخصية، هذه الفكرة تجسدت في قابيل رمز الاعتداء والقتل، في ذات السياق تدور أحداث هذه الرواية في محورية المنطلق التقليدي صراع الخير والشر، السلم والاعتداء، فمن خلال شخص هذه الرواية وتناقضاتها، وتحركها في الفضاء المرسوم لها وتفاعلها فيما بينها وتفاعلها مع محيطها سلبيًا أو إيجابيًا، يروي لنا الكاتب أعمق المبادئ الإنسانية باحترامه لقداسة الحياة ضد الانتهاك والاعتداء.

- النزعة الفوقية والاعتزاز بالفرد الليبي، الأصالة هي خاصية الطارقي ولذا وجبت له السيادة، سبب ضياع الذات ليس الفرد الأجنبي في حد ذاته، بل الذي ساهم في ذلك الفرد الطارقي الذي خالف أصله وثار عليه، ويتجلى ذلك في الرواية من خلال قابيل الذي سلط عليه اللوم على طول الرواية والعقاب في النهاية.

- لا يعاقب جون باركر الذي كان الأجنبي الدخيل، فقايل هو من أهلك الودان والغزال لرغبته الخاصة، وشهوته المنبعثة من الدودة الشرهة في فمه التي هي رمز للنفس الأمارة بالسوء.

- يقوم المكان الصحراء على رمزية العهود والنذور والنذر دائماً هو جزء من مكونات الصحراء، مرة كان النذر:

1- بين المؤلفون + الودان.

2- الإنسان = والد أسوف + المؤلفون.

3- مرة بين الحيوان والإنسان = الغزالة + الإنسان.

4- مرة بين الحيوان + الإنسان.

5- أسوف + المؤلفون = فالعهود جوهر المكان الصحراء.

- النذر والمكان: الحفاظ على النذور كان دائماً رمز للحفاظ على الحياة، ولكن لا أحد كان أميناً مع نذر الصحراء الكل خالف والكل يعاقب، تعرض للعقاب: والد أسوف، أسوف، الغزالة. فالعهد خارج المكان، ولا حفظ للحياة خارجه، فالحياة لا تتشكل خارج إطارها ولا يتم الخلاص إلا بها فالنذر حفظ للحياة.

الهوامش:

- ¹ - سعيد بنكراد، السرد الروائي وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2007، ص35.
- ² - المرجع نفسه، ص122.
- ³ - سعيد بنكراد، السيميائيات السردية مدخل نظري، منشورات الزمن، الدار البيضاء، ص10.
- ⁴ - المرجع نفسه، ص 14.
- ⁵ - ولد إبراهيم الكوني بغدامس في ليبيا عام 1948م، وأنهى دراسته الابتدائية بغدامس، والإعدادية بسبها، والثانوية بموسكو، وحصل على الليسانس، ثم الماجستير في العلوم الأدبية والنقدية من معهد غوركي للأدب بموسكو 1977م. يجيد تسع لغات، وكتب ما يزيد على سبعين كتاباً، يقوم عمله الأدبي الروائي على عدد من العناصر المحدودة، على عالم الصحراء بما فيه من ندرة وامتداد وقسوة وانفتاح على جوهر الكون والوجود، وتدور معظم رواياته على جوهر العلاقة التي تربط الإنسان بالطبيعة الصحراوية، وموجوداتها، وعالمها المحكوم بالحنمية والقدر الذي لا يُردّ . نشر إنتاجه الأدبي بجرائد فزان، والبلاد، والفجر الجديد، والحرية، والميدان، والحقيقة، والأسبوع الثقافي، وطرابلس الغرب ومجلة المرأة، وليبيا الحديثة، والكفاح العربي، والصدقة البولونية . وينتمي إبراهيم الكوني إلى شعب الطوارق الذي يقع موطنه في أجزاء الصحراء الكبرى في جنوب غرب ليبيا وجنوب الجزائر وشمال النيجر، وشمال بوركينا فاسو وشمال مالي (أزواد^[3]) وهذا الشعب مشهور بعادة اللثام لدى الرجال وقد عرفوا قديماً باللمثمين والمرابطين^{[4] [5]} . ومن المناصب التي تقلدها: منصب في وزارة الشؤون الاجتماعية في سبها ثم وزارة الإعلام والثقافة، ومراسل لوكالة الأنباء الليبية بموسكو في 1975م، ومندوب جمعية الصداقة الليبية البولندية بوارسو 1978م، ومستشار إعلامي بالمكتب الشعبي الليبي (السفارة الليبية) بموسكو 1987م ومستشار إعلامي بالمكتب الشعبي الليبي (السفارة الليبية) بسويسرا 1982م .
<http://ar.wikipedia.org/wiki/>
- ⁵ - ينظر: سمر روجي الفيصل، الرواية العربية البعد والرؤية مقاربات نقدية، دمشق،

اتحاد الكتاب العرب، ص73.

- ⁶ - وسنتأوله وفق فضاء خارجي وفضاء داخلي. (هذه الإشارة توضع في الهامش).
- ⁷ - حيوان الموفلون: هو أقدم حيوان في الصحراء الكبرى، وهو تيس جبلي انقرض في أوروبا في القرن السابع عشر، ينظر ابراهيم الكوني، نزيف الحجر، تاسيلي للنشر والإعلام، بيروت لبنان، ط3، 1992، ص8.
- ابراهيم الكوني، الرواية، ص8.⁸
- المرجع نفسه، ص 142.⁹
- المرجع نفسه، ص 30.¹⁰
- المرجع نفسه، ص 37.¹¹
- المرجع نفسه، ص 21.¹²
- سعيد بنكراد، السرد وتجربة المعنى، ص8.¹³
- الرواية، ص، 99.¹⁴
- الرواية، ص 147.¹⁵
- ¹⁶ - الرواية، ص 11.
- ¹⁷ - الرواية، ص 99.
- ¹⁸ - الرواية، ص 143.
- ¹⁹ - الرواية، ص 148.
- ²⁰ - الرواية، ص 138.
- ²¹ - الرواية، ص 81.
- ²² - الرواية، ص 112.
- عبد القادر عيمش، شعرية الخطاب السردية الخبر، دار الألفية، ط1، 2011، ص71.²³
- الرواية، ص 7.²⁴
- ²⁵ - الرواية، ص 9.
- ²⁶ - الرواية، ص 76.
- ²⁷ - الرواية، ص 92.
- ²⁸ - الرواية، ص 114.
- ²⁹ - الرواية، ص 147.
- ³⁰ - الرواية، ص 8.
- الرواية، ص 11.³¹
- الرواية، ص 11.³²

- الرواية، ص 33.³³
- الرواية، ص 34.³⁴
- الرواية، ص 8.³⁵
- الرواية، ص 77- 78.³⁶
- الرواية، ص 8.³⁷
- الرواية، ص 8-28.³⁸
- الرواية، ص 109.³⁹
- الرواية، ص 26.⁴⁰
- الرواية، ص 53.⁴¹
- الرواية، ص 58.⁴²
- الرواية، ص 67.⁴³
- الرواية، ص 86-87.⁴⁴
- الرواية، ص 87.⁴⁵
- الرواية، ص 62.⁴⁶
- الرواية، ص 53.⁴⁷
- الرواية، ص 60.⁴⁸
- الرواية، ص 68.⁴⁹
- الرواية، ص 61.⁵⁰
- الرواية، ص 66.⁵¹
- الرواية، ص 108.⁵²
- الرواية، ص 61.⁵³
- الرواية، ص 75.⁵⁴
- الرواية، ص 81.⁵⁵
- الرواية، ص 98.⁵⁶
- الرواية، ص 12.⁵⁷
- الرواية، ص 96.⁵⁸
- الرواية، ص 92.⁵⁹
- الرواية، ص 93.⁶⁰

- الرواية، ص 87.⁶¹
- الرواية، ص 87.⁶²
- الرواية، ص 124.⁶³
- الرواية، ص 11.⁶⁴
- الرواية، ص 21.⁶⁵
- الرواية، ص 24-25.⁶⁶
- الرواية، ص 37.⁶⁷
- الرواية، ص 54.⁶⁸
- الرواية، ص 55.⁶⁹
- الرواية، ص 15.⁷⁰
- الرواية، ص 96.⁷¹
- الرواية، ص 96.⁷²
- الرواية، ص 96.⁷³
- الرواية، ص 97.⁷⁴
- الرواية، ص 100.⁷⁵
- الرواية، ص 87.⁷⁶
- الرواية، ص 96.⁷⁷
- الرواية، ص 8.⁷⁸
- الرواية، ص 17.⁷⁹
- الرواية، ص 22.⁸⁰
- الرواية، ص 23.⁸¹
- الرواية، ص 41.⁸²
- الرواية، ص 60.⁸³
- الرواية، ص 87.⁸⁴
- الرواية، ص 87.⁸⁵
- الرواية، ص 123.⁸⁶
- الرواية، ص 125.⁸⁷
- الرواية، ص 143.⁸⁸

- الرواية، ص 143.⁸⁹
- الرواية، ص 8.⁹⁰
- الرواية، ص 11.⁹¹
- الرواية، ص 143.⁹²
- الرواية، ص 143.⁹³
- الرواية، ص 144.⁹⁴
- الرواية، ص 63.⁹⁵
- الرواية، ص 60.⁹⁶
- الرواية، ص 68.⁹⁷
- الرواية، ص 89-90.⁹⁸
- الرواية، ص 110.⁹⁹
- الرواية، ص 134.¹⁰⁰
- الرواية، ص 124.¹⁰¹
- الرواية، ص 129.¹⁰²
- الرواية، ص 45.¹⁰³

